الفصل الأربعون

في الرحلة العلمية من جبل السلسلة إلى جزيرة أنس الوجود وهو آخر الفصول

كيلو متر

٢٤ من جبل السلسلة إلى كوم أمبو

٤٤ من كوم أمبو إلى أسوان

٩١٦ من بولاق إلى أسوان

ثم نحو الجنوب إلى أسوان ونشاهد في طريقنا معبد أمبوس المعروف بإسم كوم أمبو الواقع على ضفة النيل الشرقية في شمال قرية دراو وقد تسلطت عليه جيوش النيل في كل سنة فهزمت جموع محاسنه وشتتت رونق لطائفه وأبادت بهجة مناظره ولم يبق منه إلا بعض

جدر قد إنحنت أمام سلطان فيضه وهو من بناء دولة البطالمة كمعبد إدفو ودندرة وغيرهما ويرى عليه إسم كل من بطليموس فيلو ماطور «محب أمه» وبطليموس أويرجيطه الثاني «الرحيم» وبطليموس ديونيزوس «الخمار» وهو مركب من معبدين مرصدين على معبودين متضادين على طرفي نقيض وهما هوروس إله النور والخير وسبك بفتح السين والباء وسكون الكاف أي التمساح إله الظلمة والشر ولعمده هيئة يونانية مصرية تخالف طريقة العمد الفرعونية وكان له إيوان وحوش جار عليهما سلطان النيل ولم يبق لهما الآن أثر ولا عين ولبعض أحجار سقفه شكل خاص على هيئة متوازي المستطيلات وكلها جافية الحجم منها ما يبلغ طوله نحو الأربعة أمتار وفي سنة ١٨٩٣ إهتمت مصلحة الآثار في بناء رصيف له لبقى ما بقى منه من عائلة النيل ورممت شعث ما كان منه على وشك السقوط وأزالت منه بعض الأتربة وصرفت على ذلك المبالغ الباهظة وهي لم تزل إلى الآن مصرة على تجاز ما شرعت فيه.

وفي سنة ٩٢ أخبرني بعض أهالي تلك الجهة أن بقرية الكيبانية الواقعة في سفح الجبل الغربي رجلًا يعرف معبدًا عظيمًا لم يطلع عليه أحد فتوجهت إلى القرية المذكورة وأحضرت ذلك الرجل فإذا هو شيخ فانِ فسألته عن صحة هذا الخبر فقال لي أعلم أني كنت في مدة نزيل الجنان مُحَمَّد

علي باشا شابًا في شرخ الشباب وعنفوان الصبا وكان لي أخ أصغر مني فخرجت عليه قرعة العسكرية ففررت معه إلى الجبال خوفًا عليه وهمنا في أوديتها وكنا نقطع المهامه ونعتسف السير ونجوب السبسب والصحصح ومازلنا كذلك طول يومنا حتى أتينا قبيل المساء عمارة واسعة رحبة الأرجاء على بابها عمودان من حجر الصوان و بجوار كل واحد أسد رابض من الحجر الأسود فدخلنا فيها فرأينا أماكن وأروقة ومباني شتى مكتوبة بالقلم القديم وألوانها نضرة ليس بها مكان مهدوم ولا متخرب وأرضها مبلطة بالحجر فطاب لنا المقام فيها مدة ثلاثة أيام حتى فرغ ماؤنا فأحوجتنا الضرورة إلى الخروج والعودة إلى قريتنا فدخلناها ليلًا وقضينا ما نحتاج إليه من ماء وزاد وعدنا بالثاني فلم نهتد إليها ثم بعد ذلك بعدة أعوام خرجنا في طلبه و بذلنا الجهد في البحث ولم نعرفه وعدنا بالخيبة وكنت من وقت إلى آخر أذهب إلى الجبال وأستأنف البحث ولم أجد ثمرة وذهبت أتعابي طيّ الرياح وقبل الآن بثلاثة أعوام حل بقريتنا رجل إفرنكي من تجار الأنتيكة وكان بلغه الخبر فأحضر الزاد والراحلة وخرجنا في أهبة عظيمة وطفنا الجبال وتوغلنا في معاميها وقطعنا قاضيها ودانيها و بقينا على ذلك مدة ثمانية أيام فما بلغنا الآمال ولا رأينا لطيفه خيال ثم عدنا بصفقة المغبون بعد أن كاد يتربص بنا ريب المنون فلما سمعت منه هذا الكلام هزتني أريحة البطل المقدام وعزمت على أن أدلي دلوي لعلي أبلغ بلة أو أشفي غلة وأنال المرام وأقول يا بشرى هذا غلام لكن الحرّ كان يشوي الجلود ويذيب الجلود فأخذت على نفسي العهود بأني أعود وأفرغ في البحث المجهود وقلت لعل الزمان يجود ويثمر لي العود وأكون أنا الموعود ثم إنطلقت إلى أسوان ولم أدر أن الزمان قدمان إذ رأيت بها رقعة تقول لي الرجعة الرجعة ثم السرعة السرعة فعدت وما قضيت وطرًا ولا حققت خيرًا لكن العود أحمد وصاحب الجدّ يحمد وفي الصباح يحمد القوم السرى «رجع» فإذا إتجهنا إلى الجنوب ودنونا من بندر أسوان رأينا على يميننا أكمة عالية جدًا متصلة بالجبل الغربي تعرف عند سكان تلك الجهة بقبة الهواء لوجود قبة عليها وطريقها صعب الإرتقاء لإنحداره وكثرة الرمل الثائر به فيقطعه الإنسان في نحو الأربع عشرة دقيقة و بها نحو ٣٦ قبرًا وأول من إكتشفها هو مصطفى أفندي شاكر وكيل أشغال دولة بريطانيا العظمى في بندر أسوان ففتح بعضها في سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٨٦ ثم جاء من بعده السير غرانفيل رئيس الجنود المصرية بالحدود وفتح باقيها إذ سلط عليها العساكر المصرية فكشفوها في أمد يسير فصارت مفتوحة معلقة بوسط الجبل كل من رآها من بعد ظنها مزاغل في طوابي أو قلاعًا حربية أو حوانيت بالجبل خلت من سكانها وإن شئت قلت يظنها أفواها مفتوحة تستغيث إلى ربها

وتطلب الرحمة لساكنيها وتقذف لعنًا على من يمدّ إليها يد الدمار.

وأول ما يدنو إليها الإنسان بسفينة يرى على النيل بقايا رصيف قديم كان مبنيًا بالحجر يصعد منه سلم منحوت بالجبل يبلغ طوله نحو ٤٨ مترًا يحيط به جداران أحدث عهدًا منه وهو يتشعب إلى ثلاثة مسالك تفضي إلى بعض تلك المقابر والظاهر أنهم جعلوا تلك المسالك مجازات لمرور نواويس موتاهم إليها وفي نهاية السلم وعن يمينه ويساره قبور لبعض رجال العائلة السادسة والعائلة الثانية عشرة المصرية وبها بعض نصوص بربائية إعتنى بترجمتها كثير من علماء الآثار وذكروها في مؤلفاتهم. ومن أشهرها باب القبر نمرة ٢٦ الذي يرى الإنسان في نحو ثلثه بابًا آخر وهو لأحد الأعيان المدعو سابن بفتح السين وكسر الموحدة وسكون النون وكان في أيام الملك «نفر قازع بي الثاني» أحد ملوك العائلة السادسة لأنه باشر تشيد هرم هذا الملك الذي سبق ذكره بسفارة أما القبر فيشتمل على رحبة يبلغ طولها ٢١ مترًا وعرضها ٨ متر بها أربعة عشر عمودًا مربعة الأضلاع مخلقة من الجبل يعني أنها والسقف والأرض قطعة واحدة وعلى أول عمود منها جهة اليمين صورة سابن المذكور مرسومة بلون أحمر وله شعر أسود وعلى الجدار المقابل لهذا العمود تراه مرسومًا واقفًا في سفينة يصطاد سمكًا وبجواره خادم أو رفيق له يقنص طيرًا جاثمًا أي واقفًا على نبات البردي النابت بوسط الماء وعلى اليسار مسلك يفضي إلى سرداب متعرج كان في نهايته جثة صاحب القبر المذكور وعلى يسار هذا القبر قبر آخر متصل به بلا فاصل يعرف بنمرة ٢٥ وهو لرجل يدعى «ميخو» بكسر الميم وضم الخاء أو ميكو و به ثمانية عشر عمودًا مرتبة على ثلاثة صفوف مخلقة من الجبل أيضًا لها مشابهة قوية العمد التي في قرية بني حسن وبين الصفين الأولين حجر مربع ظن علماء الآثار أنه كان محرابًا وعلى يمين الباب بعض نقوش لطيفة بها صورة ميخو المذكور مصور في هيئة رجل وسيم المحيا تلوح عليه وسمة الشهامة مع أنه سقيم أعرج بالرجل اليمنى يتوكأ على عصاه وله إبن يدعى ميخو أيضًا وزوجة تدعى أبا بفتح الهمزة والموحدة وكانت قسيسة للمعبودة هاتور ثم ترى صورة تقديم القرابين وصاحب القبر قائم يقطّع حيوانًا للقربان ثم تراه في جهة أخرى يحرث الأرض بنيرانه و يحصد القمح من غيطه وبازاء ذلك صورة حمر أي حمير مصفوفة لها شكل لطيف ولهذا القبر مجاز يفضي إلى سرداب ينتهي بمخدع أو مقصورة مربعة الأضلاع فإذا غادرنا هذا المكان وصعدنا قليلًا وملنا إلى جهة اليمين رأينا جملة مقابر أغلبها خال من النقش وأهمها قبر رجل يدعى «رع نب قو نخت» ويظهر من إسمه أنه كان من أعظم رجال الدولة الفرعونية أيام الملك أمنمحعت الثاني أحد ملوك العائلة الثانية عشرة

ويفهم من بعض نصوصه أنه كان رئيسًا على عساكر الإمدادية التي كانت على الحدود المصرية جهة الجنوب وفي هذا المكان طريق ضيق يتصل بفسحة بها ستة عمد مربعة الأضلاع مخلقة من الجبل ثم دهليز مستطيل في كل ناحية منه ثلاث مقاصير وفي الأولى جهة اليسار صورة المعبود أوزيرس وله لحية مرسلة ثم دهليز يفضي إلى فسحة صغيرة بها أربعة عمد وعلى اليمين مجاز يتصل بأربعة مدافن.

فإذا خرجنا من هذا المكان وعلونا الجبل قليلًا رأينا القبر نمرة ٣٢ و به بعض نقوش وكتابة قد أخنت عليها الأيام وهو لرجل يدعى «س رمپوت» وتراه جالسًا على كرسيه تلوح عليه الوجاهة وكان أيام الملك أوزرتس الأول آخر ملوك العائلة الحادية عشرة وفي الفسحة الأولى منه سبعة عمد مخلقة من الجبل على أحدها جهة اليمين صورة تجريدة مصرية كانت توجهت لقع أمة «كات» التي كانت تمردت وشقت عصا الطاعة وفي مدخل المجاز الموصل للمدفن كتابة محتها الأيام أيضًا نلمح منها ما كان لصاحب هذا القبر من المراتب السامية وأنه ساق العساكر لفتح بلاد الكوش «بالسودان» وعلى اليسار صورة صيد السمك وقنص الطير ثم سرب من الثيران أما القبر فيشتمل على فسحة صغيرة بها أربعة عمد ثم مجاز يتصل بفسحة أخرى بها أربعة عمد أيضًا وكلها مخلقة من الجبل وإلى هذا القبر تنتهي فرجة السائحين من هذا المكان وبالجملة لا يتيسر للإنسان رؤية جميع ما بها إلا إذا كان معه ما يستصبح به أه ثم ننحدر من هذه الربوة ونركب الزورق وننحوا لجنوب فنرى جزيرة خضراء نضرة يحيط بها النيل وتحيط به الجبال من الجنوب والغرب عليها صخور قد شمخت بأنفها إلى السماء كأنها قلاع أو معاقل لها منظر موحش قد شوتها الشمس بحرارتها حتى صورتها داكنة اللون وكلها من الحجر الجرانيت الصلب فإذا نظرنا إلى الجنوب رأينا النيل كأنه إنتهى هناك لأنه يزوغ فجأة خلف تعاريج تلك الجبال الصخرية أما الجزيرة فكانت تعرف قديمًا بإسم جزيرة الفنتينه وتسمى الآن جزيرة أسوان وأغلب سكانها برابرة في غاية الفقر والمسكنة لعدم توفر وسائل المعيشة عندهم وكل من دخل فيها ظن نفسه في بلاد النوبة لأنه لا يسمع غير رطانهم وبربرتهم السودانية وكان بها معبدان قد هدم الشمالي منهما ولم يبق به إلا نحو نصفه وصار كخرابة ليس به فائدة تاريخية أما الجنوبي فتخرب أيضًا لكن عليه إسم الملك أمونوفيس الثالث «أمنحتب الثالث من العائلة الثامنة عشرة» وكان هذا المعبد جميل المنظر و متناسب الأجزاء و بابه الباقي إلى الآن معقود من حجر الجرانيت عليه إسم إسكندر الثاني وله رصيف لطيف مشيد على النيل لمنع تعدي مياهه عليه وقت الفيض وهو

من بناء الرومان بنوه بأنقاض المباني القديمة الفرعونية و بوسط المنازل هناك تمثال للمعبود أوزيريس يبلغ طوله نحو المترين قد لعبت به الأيام ومحت محاسنه عليه إسم الملك منفطه «من العائلة العشرين»، لكن لا يقرأ إلا بغاية المشقة لزوال بعض أحرفه ولا شك أنه كان له نظير إغتالته يد الضياع كانوا نصبوهما أمام وجهة معبد الملك أمونوفيس المذكور أما سبب خراب هذين المعبدين فهو أنه في سنة ١٨٢٢ مسيحية قامت الحكومة المصرية والناس فهدموا منهما ما شاء الله وأخذوا حجارتهما المكتوبة حولوا بعضها إلى جير وبنوا بالباقي ما أرادوا بناءه.

وكانت هذه الجزيرة دار إقامة لبعض ملوك العائلة السادسة ثم صارت معسكرًا حربيًا لردّ مهاجمة أهل إثيوبيا عن مصر وبنى بها بعض الفراعنة مقياسًا للنيل كانت أخفته الأيام عن العيون جملة أحقاب وقرون إلى أن إكتشفه الفرنسيس مدة الحملة الفرنساوية بمصر وذلك في نحو سنة ١٨٠١ مسيحية لكن صار بعد ذلك مهجورًا إلى أن حدده خديو مصر إسماعيل باشا على يد المرحوم محمود باشا الفلكي ومن وقتها صار مستعملًا في حساب زيادة النيل كمقياس الروضة بمصر والإنكليز به الآن تحسينات مهمة وعلى الشاطئ الشرقي للنيل قبالة تلك الجزيرة بندر أسوان وسكانه إخلاط من الناس ما بين مصري وتركي وإفرنجي وبربري و بشاري وفلاح وعربي بحيث إن الزائر الغريب يتعجب من كثرة هؤلاء الأجناس وإختلاف لغتهم وتبلبل ألسنتهم فيتذكر من هذه الهيئة وذلك الإجتماع أيام النمرود وبناء صرح بابل و تبلبل الألسنة ويرى عرب البشارية حفاة الأقدام عراة الأجسام لهم شعر مرسل على أكتافهم كأنه فروة كبش قد تلبد صوفها بعد ما طال أو كجلد عنز جعلوه على رؤسهم فصار لهم هيئة خاصة ولجسمهم لمعة من الدهان لكن وجوههم سمحة لطيفة جدًا وتقاطيع سيمة بعضهم في أعلى جاذبية الحسن فيهم عنف وشهامة عربية لا تكاد توجد في غيرهم فهم كما قال الشاعر

جمـــال الوجـــه مـــع قـــبح النفـــوس كقنـــــديل علـــــى قـــــبر المجـــــوس

وهذه المدينة صارت الآن من أعظم المدن المصرية التي بالصعيد وإنتظم بعض منازلها وبنيت بها الخانات والفنادق وجعلت فيها الميادين والطرق الواسعة سيما الجهة الغربية منها المطلة على النيل وهي الآن عامرة آهلة بالتجارة والتجار ومن ضمن متجرها الفاخورة اللطيفة التي تضارع فاخورة أسيوط ثم البلط والحراب والدرق والكرابيج وجلود الحيوانات المفترسة وغير ذلك من وارد السودان ولم يظهر بأسوان لغاية الآن آثار تاريخية تستحق الذكر في هذا الكتاب غير معبد صغير في جهتها الجنوبية وهو الآن محاط بالأتربة والقاذورات غير معتني بشأنه لقلة أهميته

وبناؤه كان في مدة البطالسة.

وعلى بعد كيلومتر منه إلى الجنوب مسلة عظيمة جدًا خالية من الكتابة متخذة من حجر الجرانيت الصلب الأرقط الذي لا يؤثر فيه الحديد إلا في الزمن المديد وهي منحوتة ومصقولة من ثلاث جهاتها أما الجهة الرابعة فمتصلة بالجبل لم تفصل منه ولضخامتها وهندامها صارت أعجوبة لمن رآها تفصح بلسان حالها عن قوة القوم وعدم إكتراثهم بصعاب الأمور ويرى فيها وفي غيرها من الأحجار التي بجوارها أثر الأسافين والآلات التي كانوا يستعملونها لتفصيل وقطع تلك الأحجار الصلبة وهذه المسلة راقدة في مقطعها الممتد نحو مسافة نصف ساعة إلى الجنوب ويقال أنه كان بالقرب من قرية أسوان القديمة بئر يرى فيها قرص الشمس وقت الزوال متى حلت الشمس في مدار السرطان ولا يعلم الآن مكان هذه البئر.

كيلومتر

٨ من أسوان إلى جزيرة فليا المعروفة عند العوام بإسم جزيرة أنس الوجود

٩٢٤ من بولاق إلى جزيرة فليا

ثم نركب وابور البر ونقصد الجنوب ونسير في صحارى قفراء وجبال غبراء وآكام من الجرانيت يضل فيها الخبير الخريت وبعد أن نقطع ثمانية كيلومترات نصل إلى ورشة الوابورات التي أمام تلك الجزيرة فنركب الزوارق ونقطع فرع النيل الشرقي فنصل إليها وكانت تعرف عند قدماء اليونان بإسم جزيرة فليا وتسمى الآن جزيرة أنس الوجود وهي تسمية على غير أساس لأن الإنسان لا يرى وهو بها غير ماء يحسبه راكدًا كالبحيرة مع أنه جار بطيء تكتنفه جبال جرانيتية داكنة اللون تميل إلى الحمرة قد شوتها الشمس بلهيب أشعتها وللجزيرة والنيل والجبال منظر موحش جدًا وهيئة فريدة في بابها سيما رؤية الجبال وما عليها من الصخور التي ألقتها يد القدرة على بعضها بلا ترتيب لا يسمع بها همس حيوان ولا صوت إنسان فيتخيل الزائر أنه في مساكن الجان أو إستهوته يد الشيطان ويرى الجبال حفت الماء من كل مكان حتى صار شبه بركة صغيرة وكأن الجبال إتصلت ببعضها لأن النيل يزوغ من عين الرائي خلف تلك الجبال المتعرجة وقد يعجز القسم عن بيان جميع ما يعتري الإنسان من الوحشة والغرابة التي ما رأى مثلها في حياته سيما إذا كان منفردًا ولم تسبق له رؤية هذه المناظر.

ومن تتبع الصخور المتفرقة ما بين أسوان وهذه الجزيرة رأي عليها أسماء كثير من الفراعنة

وأمراء العسكر وقواد الجيش ووجوه الناس كتبوها لتكون تذكارًا لخدمتهم الوطنية ورحلتهم إلى بلاد السودان ووقائعهم الحربية وتسخيرهم لأعدائهم وعلى بعضها صورة المسافرين وقيامهم بعبادة إله الشلال وصيغة الدعوات التي كانوا يتلونها قبل سيرهم وبذلك صار لهذه الصخور أهمية كبرى عند علماء التاريخ والآثار إذ يستفاد منها كثير من الفوائد التاريخية التي منها توالى التجريدات المصرية والفتوحات الأهلية ومنها أن جميع تلك الأقاليم كانت خاضعة لدولة مصر من قديم ومنها ما كان للسودان من القوة والأنفة حيث كانت تخلع أطواق الطاعة وتكافح سيدتها التي تضطر بأن ترسل إليها البعوث وتعيي لها الجنود في كل زمان ومنها إشتباك الطرفين في الحروب المستمرة ومنها ما كان لمصر من القوة وعظيم البأس وأن أخبارها حملتها الصخور على العين والرأس.

وبإزاء هذه الجزيرة جزيرة أخرى تعرف بإسم جزيرة الساحل بها كثير من تلك الصخور العلمية لكنها قفراء.

وأعظم آثار جزيرة فليا هو المعبد الكبير الشهير بقصر أنس الوجود وهو من بناء بطليموس (فيلودلفيس) أي محب أخيه (سمي بذلك للسخرية لأنه أتهم بقتل أخيه بالسم وهذا الملك هو بطليموس العالم الفلكي صاحب كتاب المجسطى المشهور) وعلى المعبد أسماء كثير من البطالسة والرومان يستفاد منها أن لهم به مباني وتجديدات مهمة وأن الناس كانت تؤمه للزيارة والفرجة.

ومتى دنا الإنسان منه رأى رحبة واسعة بها أساطين تحمل البواكي حوله ثم برجين شاهقين يبلغ إرتفاعهما نحو ٢٢ مترًا لهما مشابهة بأبراج معبد إدفو غير أنهما أقل إرتفاعًا منها وبوسطهما باب يفضي إلى إيوان به أساطين كانت تحمل العرش ولتيجانها منظر بهيج وعلى بسيطها نقوش دينية ثم يرى داخله جملة أبواب تفضي إلى غرف ومقاصير أغلبها ظلام دامس لقله منافذ الضوء بها ويرى في ضوء المصابيح نقوشها الزاهية البديعة ثم أسماء الملوك من البطالسة والمعبودات وإذا صعد الإنسان على السطح رأى نفسه على طودة حولها أطواد من الصخور الوحشية المنظر ويسمع على بعد عندما يسكن هيجان الريح هدير الشلال يدوي في الجبال فيعتري الإنسان وحشة الغربة.

وبجوار هذا المعبد معابد أخرى صغيرة قد أتت عليها الأيام حتى كادت تؤدى بها إلى العدم وكلها من عمل دولة البطالسة.

ومن أقدم مباني هذه الجزيرة الباب الكبير الواقع بين الأبراج العظيمة التي هناك ثم المعبد العتيق الكائن في نهاية الجزيرة من جهة الجنوب الغربي وكلاهما من بناء فرعون المدعو (نقطنبو الثاني) لأن عليهما إسمه وهذا الملك المنكود البخت هو آخر من حكم مصر من أهلها ولم يقم لمصر من بعده تخت أهلي إلى الآن كما أنه آخر ملوك العائلة المتممة للثلاثين وهذا المعبد لم يبق به الآن غير إثنى عشر عمودًا وبعض جدر قد تطوحت بها الأيام.

أما تاريخ هذه الجزيرة فمختصر جدًا لأنه يؤخذ من عمر أقدم مبانيها أنها لم تعتبر قداستها إلا أيام الملك نقطنبو المذكور أعني قبل إغارة الإسكندر الرومي ببضع سنين ثم إعتمد اليونان والرومان صحة قداستها فبنوا بها تلك المعابد وزخرفوها بقدر طاقتهم وبالغوا في إحترامها وجعلوا لها الكهنة والقسس وتمسك أهل تلك الجهة بحبل إحترامها حتى أن أوامر القيصر (تيودوز) أو (تيودوسيس) القاضية بأبطال دين الجاهلية من مصر لم تؤثر على أهلها حيث أصروا على إقامة شعائرهم الدينية وإظهار عقائدهم الوثنية ومكثوا على نحو ستين سنة وهم يعبدون أوزيريس وزوجته إيزيس حتى بعد برهة من إستيلاء القيصر (مرسيانوس) سنة ٤٥٣ بعد ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

وليعلم القارئ أن هذه الجزيرة هي آخر شوط جوادي ونهاية مضمار إجتهادي وما بقي علينا الآن إلا العودة إلى الأوطان بعدما نرى الشلال وما حوله من الجبال.

ولأجل ذلك نركب الزورق ونعطي ظهرنا إلى الجزيرة وننحدر مع النيل فنمر بين جبال متنوعة المناظر تركبت من صخور جرانيتية محزنة الهيئة قد تكومت على بعضها بلا نظام فوقع شطر منها في الماء وعلى ساحليه فصارت تحاكي منازل خلوية مشوهة البناء حالكة اللون وتراها على بعد قد أخرجت قمتها السوداء من الماء كأنها رؤس الشياطين أو جنود إبليس أجمعين وكأنها والنيل ثعبان أرقط قد سار ذات اليمين وذات اليسار أو سوار به رقط كالنمش قد إحتاط بمعصم الحبش وللساحل أشكال مالها مثال فتراه تكيف بالكاف والنون حتى صار كالعرجون أو الحاجب المقرون ثم إنقبض على نفسه وإنبسط ورسم شيئًا ونقط ومتى جن الليل وسجى وطارد البدر جيش الدجي صار للنيل شكل ناب فيل طار عليه بعض المداد فنمقه بالسواد أو سيف مسلول بحده فلول أو بساط من لجين مفروش قد دب عليه سود الوحوش.

وكلما تقدم الإنسان إلى جهة الشلال ظن نفسه أنه في بركة راكدة ليس لها مصدر حصرتها

الجبال من كل ناحية فإذا سار إلى الأمام رآها إنفرجت له عن بركة ثانية ويزيد دوي الشلال وهدير الماء فترعد الجبال من صداه وترددده حتى يصير صوته يصم السمع ويسمع الصمم ومتى دنونا منه خرجنا من الزورق إلى الساحل فنرى النيل قد تشعب هناك إلى نحو سبع مجار يفصلها عن بعضها جزائر صغيرة جرانيتية وأعظم تلك المجاري ما كان موازيًا للجبل حيث فيه تتسابق كتائب الماء وتنقض هاجمة على جند الجنادل بالشلال فتقرعه بشدة بأسها ثم تفر مهزومة منه إلى جهة الغرب والشمال وتسكب من فيض دمعها المدرار ما تفيض به الترع والأنهار.

ولأهالي قرية الشلال عادة وهي أنهم متى رأوا الزائرين وصلوا إلى هذا المكان أتوا مسرعين حفاة عراة وينقضون في الماء من أعالي القيوف وشواهق الجروف وإرتفاعها نحو الثلاثة أمتار ونصف فيغوصون في الماء ويجذبهم عاتي تياره ويجرهم معه ثم يلفظهم على الساحل فيعودون وينقضون ثانيًا وهكذا غير أن كل من يراهم يحسبهم لسواد أجسامهم وسرعة حركتهم أنهم تماسيح أو درافيل تتقلب في ذلك الماء الهادر وتسبح فيه ثم يخرجون ويتكففون الصدقات بإلحاح وإلحاف وهذه المناظر الغريبة لا تحدث بالشلال إلا وقت تحريق النيل أما زمن الفيض فتعم المياه جميع تلك الجزائر وتصير نهرًا واحدًا قليل اللغط.

ومتى إنقضت الفرجة وأردنا العودة فلنا ثلاثة طرق أقربها وأحسنها هو أن نعود إلى جزيرة أنس الوجود ثم نركب الوابور ونحن في أمان إلى بلدة أسوان الطريقة الثانية هي أن نركب الحمير ونسير الطريقة الثالثة وهي أصعبها هي أن نكتري زورقًا بنحو المائة قرش وننحدر به مع التيار ونمر بين تلك الجنادل والأحجار حتى نصل أسوان بعد ما نقاسي المخاوف والأشجان.